«فوضى الروح»

بعد عدّة سنوات من الجمال.. من البهجة والسعادة.. انقلب الأمر على عقبيه..

استيقظت من نومها ومزاجها ليس بسيءٍ فقط، بل هو بشع وشنيع.. وقفت أمام المرآة تنظر إلى نفسها وإلى ما حلَّ بها.. إلى عينيها العسلية التي انطفأت بعدما كان يخرج منها بريقًا يضيء عتمة الليالي.. وكيف أن عينيها محاوطتان بتلك ما تسمى «الهالات»، التي أصبحت كالغطاء الحاجب الذي يحجب ذلك البريق من عينيها..

ابتسمت لنفسها ابتسامة صفراء مخبّى وراءها معانٍ كثيرة، وأولها كانت اللامبالاة..

لا تبالي بما يحدث لها أو بما قد يحدث.. فهي تعلم أن لا نجاة من ذلك.. من وقع في هذه العتمة والظلام لا مفر له إلى النور وإن حاول..

«العتمة لا تحجب النور بل إنها طريقك له».

بدّلت ثيابها وأخذت حقيبتها وخرجت من منزلها وقررت أن تحاول فقط العيش في ذلك الكوكب الكئيب..

هـا أنـا أمشي سريعـة الخطـى.. أحـاول أن أتباطأ، حتـى أحاول أن أنظر فقط إلى ما حولي، ولكن كأنما قدماي ترفض ذلك.. ترفض حتى إعطائـي تلك الفرصـة.. هي فقط تريـدني أن انطلـق ولا أتوقف، وإن توقفت فلا مكان لي سـوى أن أجد نفسي في مكانٍ واسع. ليس المهم إن كان عند الشـاطئ أم في أحد الحدائق، ولكن الأهم هو أن يكون خالٍ من جميع تلك الكائنات السخيفة التيتدعى بشر..

و بينـما أنـا أمشي شـاردة الذهـن لا أعلم بـمَ أفكر.. أجـد نفسي قد وصلت إلى الشاطىء..

لا أحد موجود. وهذا أمرٌ غير معتاد في هذا الوقت، ولكني لم أبالي وجلست..

«الأوجاع تزاحمت علي كثيرًا، أريد الاتّساع».

اعتـادت دائمًا أن تجلس عند الشـاطىء، أن تخـرج مذكرتها وتكتب. تكتب ما يحدث لها في يومها، وبما أرادت أن يحدث، تكتب ما يراودها وما يدور في رأسها وما كُتِم في قلبها. ولكن ليس بعد الآن. إنها تغيرت كثـيرًا بـل انقلب حالها. لا تكتُب شـيئًا وإن كتبت فما هـي إلا خواطر. ليست بخواطر بالفعل وإنما هي تخرج ما بجعبتها.

تخرج اليأس والحزن وكل ماهو قد يكون سلبيًا، ولكن يبقى الأسوء في القلب.

«وما خُفي كان أغرب وربما أسوء».

صمتـت قليـلًا. وجّهـت عينيها نحـو البحر. رأيت الأمـواج وهي تتلاطـم.. وكيف أن الموجة بعدما وصلـت لأقصى ارتفاع جاءت تلك الموجة التي دمّرتها، وجعلتها تنتهي..نعم إن الحياة هكذا..

بعدما تصل لأقصى مراحل الفرحة تأتي تلك العاصفة مجهولة الهوية، وتقضي على فرحك وتجعلك تعود مرة أخرى إلى نقطة الصفر.

أود أن أكتب، أود أن أخرج كل تلك العقد التي بداخلي.. لن أستطيع الصمود أكثر.. انهياري بعد حين سيكون أشنع شيئًا على وجه الإطلاق..

«إلى مَتى يا قلبي؟ إلى متى ستؤلمني الأيام؟ وإلى متى سأكتم الأحزان»..

أخرجت مذكرتها وقلمها المفضل.. فتحت صفحة بيضاء، وهي تعلم أن ما ستكتبه سيشوّه بياض تلك الورقه مثلما شوّه نقاء قلبها..

لم تشأ أن تكتب ما يدور في رأسها.. فهناك فوضى تدور به..سردت فقط ما حدث لها..

أكتب اليوم ما بي.. أعلم أنه لا يُكفي حتى أُخفف عن نفسي مرارة الحزن وعبء الحياة، ولكن ليس لدي خيار آخر..

خسِرتُ أهلي.. خسِرت عملي.. وخسِرت من أحببت.. والأهم من ذلك أنني خسرت نفسي..

توالت هذه الأحداث بعضها البعض في غضون عدّة أشهُر.. نعم أنا متعجبة ممّا حدث وأكاد لا أصدّق حتى الآن ما حلّ بي .. وإلى أي حالٍ وصلت.. ولكن ما أعلمه أنني حاولت كثيرًا حتى لا أخسر كل هذا. وأنني على استعدادٍ بالخوض في عدة محاولات أخرى لاسترجاع ما فقدت..

دعوني أُحدّثكم عن كل شيءٍ بحذافيره..

أنا وحيدة أمي وأبي.

أمي الجميلة الشقراء، تلك المرأة التي مهما زاد سنّها إلا وأنها تصغر في العمر. مهتمّة بجمالها، بأصدقائها، وبكل شيء عدا أنا.

أبي رجل الأعمال، ذلك الرجل الذي يتحدث عنه جميع سكان البلدة، صاحب المشاريع الكبيرة والانجازات العظيمة. مهتمٌّ بأعماله ولقاءاته واجتماعاته، كثير السفر، هو أيضًا مهتم بكل شيء عدا أنا..

كل هذا كان سببًا كفيلًا لحدوث تلك المشاكل والنزاعات بينهم.

كنت أعتاد يوميًا بسماع تلك النقاشات الحادة التي تدور بينهم، وتنتهي على أن كل شخص له حريته.

كل نزاع يحدث كان يغرس بقلبي شوكة، حتى امتلأ قلبي بتلك الأشواك اللعينة.

حاولت الصمود كثيرًا ولكنهم لم يصمدو، وقرروا الانفصال وأن يعيش كلٌ منهم حياته على حدا. لم يفكر بي أحدٌ بتاتًا.

لم أخطر على بال أحدهم ولو ثانية. وجدت نفسي استيقظ في اليوم الذي يلي شجارهم.. وكل منهم قد لملم أغراضه وسافر. لم يتركو لي الفرصة. لم يضحّوا من أجلي . فقط تركو لي المال.

وذلك الخبر الذي جعل قلبي يتمزق وينزف بعدما فقد القدرة على الصمود.

حزنتُ كثيرًا على حالي وإلى ما وصلت إليه.

لا ذنب لي بكل هذا؟ لما إذًا أنجبتني أمي، إذا كنتم ستفعلون بي هذا؟ لما لم تتركوني أموت عند ولادتي بدل أن تركتموني أموت في حياتي؟.

أصمد من جديد يا قلبي أصمد..

خسرت عملي. نعم خسرته ولم أعلم لماذا اضطهدتني الحياة للمرة الثانية.. بدأت بالعمل بعدما كرهت الجلوس في البيت. نعم منذ أن تركوني وأنا في البيت لم استنشق هواءً من وقتها. تمللت كثيرًا وفكرت لما لا أشغل نفسي في أي شيء. حاولت أن انشغل في شيء، ولكن كان عقلي يفكر كثيرًا.

يفكر في كل ما حدث مرارًا وتكرارًا.

فقررت أن أعمل وأجبر نفسي على التفكير في العمل فقط. قدّمتُ على وظيفة في إحدى الشركات وتم قبولي بالفعل وبدأت العمل..

كنت أقوم بعملي على أكمل وجه.. كان رئيسي في العمل سعيدًا بي حقًا حتى أنّه كان يفضلني أحيانًا عن باقي زملائي في العمل. وذلك لإتقاني للعمل وما إلى ذلك. كان هذا يثير في نفوسهم الغضب و لكنني كنت أفترض حسن النية دائمًا وأتجاهل هذا التفكير..

مرّت أسابيع وحقًا أحببت فيها عملي جدًا، حتى إنه أصبح جزءًا لا يتجزأ من حياتي.. ولكن الحياة فعلًا كالأمواج..

وصلت إلى أقصى ارتفاع الآن، وكان يجب أن يكون هناك موجة تلاطمني وتجعلني انتهي..هذه الموجة هي زميلتي في العمل..كانت تتميز بالذكاء، ولكن ذلك الذكاء السلبي ما يسمى في حياتنا «كيد النساء».. لفّقت لي جريمة بوجود كافة آثار الجريمة وبالتأكيد إنها خرافات لم أقترف منها شيئًا. حاولت كثيرًا إثبات عكس ذلك، ولكن الأمر كان محسومًا فتم طردي من العمل..

شعرت بغصة ولكنها تجاهلت وقررت أن تُكمِل قصتها..

«فرفقًا بي يا وجع، والله ما عاد في الروح متّسع».

لم أرغب بتاتًا أن أبدو ضعيفة. سواء أمام الناس أو حتى أمام نفسي، أحزن علي حالي وإلى ما وصلت اليه..

لا أحب المساعدة.. الاستنجاد بالآخرين.. لا أطلب أي شيء من أحد مهما كان.. لذا في فوضى هذى المشاكل قررت الابتعاد عن أصدقائي. انقطعت عن الحديث معهم نهائيًا. وجدت أن أغلبهم قد انتهز هذه الفرصة وابتعد.. ولكن تبقت صديقة واحدة هي من حاولت أن تصل إلي بشتّى الطرق..

أذكُر يومًا أنني وجدت رقمًا غريبًا يتصل بي.. لم أرد عليه بتاتًا.. ولكنه كان مزعجًا، كان يراود الاتصال مجددًا حتى إذا أنهيت المكالمة. وحين وصلت لأقصى مراحل العصبية أجبت على الهاتف.

وإذ بي أسمع صوتها تقول لي «أخيرًا وجدّتك». تبادلنا الحديث، كنت أحكي لها ما حلَّ بي، استمر ذلك التواصل قرابة إسبوعين ثم انقطع كل شيء.

حاولت الاتصال بها، حاولت كثيرًا وكثيرًا.. فعلت الكثير حتى أراها أو أتحدث معها. ولكن لا جدوى.

أرسلت لي يومًا رسالة على هاتفي كان نصّها «سئمت من هذه الحياة كثيرًا، لذا قررت أن أسافر وابتعد، أريد حياة جديدة وأناسٍ جُدد. إلى اللقاء»

لم تُعطني حتى الفرصة للحديث أو الجدال. أخذت نفسها ورحلت بكل استهتار دون أن يُأنبها ضميرها لثانية، ولم تفكر حتى بحبّي لها، ورغبتي بوجودها هنا. حزنتُ كثيرًا..

بعدما وجدت نفسي أتحسن كانت تلك المرحلة أقصى شيء أصل له. جاءت نفس الموجة وهدمتني مجددًا..

بعد الذي حدث من أقرب الناس إلى قلبي، أجد نفسي وحيدة مجددًا، باهتة الملامح، شاحبة الوجه، رغم أن بداخلي فوضى تكفي لإفساد هذا العالم بأكمله..

«هكذا نحن بدون أحبتنا.. كشوارع مُظلمة سوداء، رغم الضجيج الذي يسكُنها»

مررتُ بالكثير والكثير. فهمت وتعلمت أيضًا. قلبها الذي كان ينبض بكل سهولة قد تثاقل اليوم. قد أصبح مليئًا بالهموم والأحزان.. أيخسرُ المرء قلبه الذي هو أساس الحياة؟

أدركت أن حياتها قد مرت بلا جدوى..

إنه كان من المفترض عليها أن تسير في الطريق الآخر.

أن تعاند تلك الأحزان، ولا تجعلها تخترق غطاء قلبها وتعيش بداخله.

أن تجعل من قلبها درعًا لحمايتها، وكأنما الأحزان هي العدو فتدافع عن نفسها وتبعدها عن طريقها.. لو أنها سلكت الطُرق المنجية بدلًا من سقوطها في الحفرة السوداء المليئة بالحزن والكآبة..

أغلقت مذكرتها بعد ذلك الحديث الطويل..

«لا أود أن أفنى. أود أن تبقى روحي نقية وقلبي مطمئِن.. لست أنا من يسـلّم نفسـه للأحزان. ولسـت أنا من يستسلم لها ويجعلها تخترق روحه وقلبه شيئًا فشيئًا..»

نظرت إلى البحر مجددًا، وفي عينيها بريقٌ يكاد أن يطغى على نور القمر.

قطّعـت تلـك الأوراق المليئة بالهمـوم والذكريـات الحزينة، ورمتها ليبتلعها البحر..

ابتسمت وقالت: «عُذرًا أيّتُها الحياة سأعيش حياتي لنفسي»..

.